الأمة الإسلامية والعلم

العرب قبل الإسلام:

عاش العرب منقطعين عن العالم قبل الإسلام؛ يعبدون الأصنام، ويتسلط القوي على الضعيف، ليس لهم دين صحيح، ولا وحدة عامة توحدهم وتجمع شملهم، فكانوا يعيشون في ظل العصبية القبلية، وكانوا متفرقين والحروب بينهم مستمرة. كما كانوا يعيشون في فساد وفوضى ووحشية وهمجية وحرب وقتال ونزاع دائم.

وكان من تقاليدهم البغيضة وأد البنات ودفنهن أحياء، وكانوا لا يعتقدون في الحياة بعد الموت، ولا يشعرون بمسؤولية أعمالهم. كما كانوا يؤمنون بالأرواح الشريرة. أما علومهم فقد انحصرت في الشعر والخطابة ومعرفة النجوم والكهانة والأنواء وسقوط الأمطار واقتفاء الأثر.

أمة الإسلام:

لقد أعز الله العرب بالإسلام؛ فقد أخرجهم من الظلمات إلى النور، وأحيا به أمة هامدة وأصبحوا خلقاً جديداً، لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى والعلم والعمل الصالح، ووجدهم في تقدم ورقي وحضارة ، ودانت لأمة الإسلام الممالك والأمصار في سهولة ويسر، وكيف رضيت بهم الشعوب على اختلاف أجناسها، وكيف ازدهرت العلوم وانتعشت الفنون على أيديهم[1].

(١) د/ عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية القاهرة ١٩٨٩م ص ٧ ـ ٨ .

ومهما يكن من أمر فقد كانت أمة الإسلام قائمة على المبادئ الأخلاقية السامية، كما أن أمة الإسلام دستورية، فالحكم في الإسلام مقيد بالقرآن والسنة، وقد حقق القرآن كل أغراض الحكومة الدستورية فجعل الحكم شورى وأزال الفوارق في الحقوق والواجبات، وساوى بين البشر جميعاً. فأُمة الإسلام خير أُمة أخرجت للناس، تؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وتأمُر بالمعروف وتنهى عن المُنكر، فكانت أول أُمة جمعت بين قوة الإيمان وحب العلم، فنشرت عقيدة، وأقامت حضارة أضاءت بها الدنيا في وقت كان فيه العالم، فنشرت عقيدة وأقامت حضارة، أضاءت بها الدنيا في وقت كان فيه العالم في ظلام وبؤس وحروب طاحنة.

جاءت أمة الإسلام تؤمن بحرية الإنسان فعاش الإنسان حراً كريماً، وتؤمن بالإخاء والتراحم والتعاطف، فعاش الإنسان مع غيره كالجسد الواحد، ودعت أمة الإسلام إلى المساواة في الحقوق والواجبات، الأمر الذي أشاع الإخاء والمودة والرحمة بين الناس، فعاش المواطن في هدوء وطمأنينة، ولهذا كان المجتمع الإسلامي راضياً مطمئناً على يومه وغده.[1]

وآمنت أمة الإسلام بالعلم، فأصبح المسلمون جميعاً طلاب علم، وانطلق العلماء في البحث العلمي، فنشأت بذلك نهضة علمية في كل فروع العلم والمعرفة، فتقدمت العلوم وارتقت، وتقدم الطب والزراعة والصناعة.

وهكذا فإن أمة الإسلام كانت خير أمة أخرجت للناس، تؤمن بالله

(١) نفس المرجع، ص ٩ - ١٠.

ورسله وكتبه واليوم الآخر وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وهي أمة وسط تعمل على تحقيق الحرية والمساواة والعدل[١].

الروابط التي تجمع أفراد الأمة الإسلامية:

جعل الإسلام من المسلمين أمة متميزة ، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، وهي تجمع شمل المسلمين، وتفتح صدرها لمن لم يكن مسلماً. ولذا قامت الرابطة بين أبناء الأمة الإسلامية على أساس العقيدة الإسلامية التي تقوم على توحيد الإله، والتوجه نحو القبلة في الصلاة، ووحدة الشرائع والأحكام التي تؤخذ من القرآن، ووحدة الحج الذي يغذي روح الوحدة الإسلامية، ووحدة اللغة والتاريخ المشترك والقيم والعادات والتقاليد المستمدة من الإسلام.

ولا ريب أن الإسلام قد غير مجرى التاريخ وقطع بين الحضارات القديمة كالفرعونية واليونانية والرومانية والفارسية والهندية، وربط بين الحنيفية ورسالة محمد، فأعاد سلسلة النبوات، وأوجد حضارة متصلة بالسماء من آدم إلى محمد.

غير أن الإسلام قد واجه تحديات منذ ظهوره بسبب ازدهاره، ولكنه تغلب على كل التحديات وأثبت قدرته على البقاء والاستمرار والاتساع، وظل محتفظاً بذاتيته عن غيره من النحل والأديان[٢].

---

(١) د. عز الدين فراج، المرجع السابق، ص ١٠ .

(٢) د/ جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي ، عمان ١٩٨٩ ، ص ١٣ .

الحضارة الإسلامية حضارة عالمية:

قامت الحضارة على أساس إيمانها بالإسلام ونفورها من التعصب الديني واحترامها لكل الأديان الأخرى، وكان التسامح الديني وعدم التعصب هو مظهر الدين الإسلامي.

وشجع الخلفاء روح الإبداع والابتكار والبحث العلمي والربط بين تعاليم الدين والعلم. وقد ظهر الإسلام بين بيئات جغرافية متنوعة مما أعطاه رقياً مادياً وحضارياً، كما أن وجود الإسلام بين بيئات بشرية متنوعة أعطاه الحيوية والقدرة والبقاء وجعلها تخرج من حدود ضيقة إلى حدود واسعة وهذا ما جعلها حضارة عالمية أخذت عنها الحضارة الأوربية الحديثة(١).

وقد ازدهرت الحضارة الإسلامية للأسباب الآتية:

١ ـ الإسلام يدعو إلى العلم ويحث عليه.

٢ ـ النبي محمد ﷺ يدعو إلى العلم.

٣ ـ اهتمام الخلفاء بالعلم والعلماء.

أولاً الإسلام يدعو إلى العلم:

جاء الإسلام يحث على طلب العلم ويدعو إليه، وكانت أولى آيات القرآن الكريم تحث عليه وهي: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من**

(١) د/ عز الدين فراج، المرجع السابق ص ١١.

علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم ﴾، ثم تتابع نزول القرآن ووردت به آيات كثيرة تدعو إلى العلم وتكرم أهله وترفعهم إلى أعلى الدرجات: ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾، و﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ و ﴿ **نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم** ﴾ و ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾، ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ ﴿ **وقل ربِ زدني علما** ﴾.

أخذ النبي يعلم المسلمين وينشر العلم لمن حوله، وقد فرض الرسول على الأسرى من الكفار تعليم عشرة من المسلمين فدية لإطلاق سراحهم. وقد ركز القرآن الكريم في كثير من آياته على العلم ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ أي أن الله يدعو إلى البحث في أنفسنا كيف خلقنا وكيف نمونا وما في جسمنا من أجهزة دقيقة، ودراسة العلوم التي تتصل بالإنسان كعلم الطب وعلم النفس. كما علمنا القرآن ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ احترام العلماء وتبجيلهم وتكريمهم حتى يخلصوا في عملهم ويتقدموا في انتاجهم(١).

وقال تعالى ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ وهذه الآية تحض على إيجاد علماء متخصصين في كل علم، وأن نرجع في أمورنا لأهل الخبرة والاختصاص، واحترم الإسلام العقل الإنساني، ودعا إلى النظر في الكون ليدرك عظمة الخالق، وقد ورد في آيات كثيرة في القرآن الكريم عن الكون والفلك والرياح والنجوم والحواس كالسمع والبصر والفؤاد. وهذا

(١) د/ عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، القاهرة ١٩٩٥، ص ٤٩ - ٦٤.

يؤكد حقيقة علمية لم يصل إليها العلم إلا أخيراً بينما جاء بها القرآن منذ ١٤ قرناً.

وقد أثبت العلم الحديث بالتجارب والأبحاث أن الجنين يولد وتبدأ حواسه بالعمل بعد ذلك، وأولى الحواس التي يستعملها الطفل هي حاسة السمع وتليها حاسة البصر وأخيراً الإدراك والقدرة على الفهم. وهناك آيات كثيرة تحث على تدبر آيات الخالق والاستفادة منها والبحث عن هذه الآيات من الناحية العلمية الحديثة ليستزيد منها الأطباء والعلماء وليؤكدوا ما جاء فيه من أسرار الكون وعظمة الخالق. وقد أثبت العلم الحديث أهمية البلح في تسهيل الولادة وذلك بعد ١٤ قرناً من نزول القرآن الكريم كما جاء في سورة مريم ﴿ **وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا** ﴾[١]

ثانياً: نبي الإسلام والعلم:

حث النبي على العلم وقال في ذلك أحاديث كثيرة «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» «اطلبوا العلم ولو في الصين» «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء» واجمع العلماء ان الاعتدال في الطعام هو خير وسيلة للوقاية من الأمراض وقال الرسول ﷺ «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه» وقال «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع»[٢] وحرم الرسول الخمور تحريماً مطلقاً.

---

(١) نفس المرجع.

(٢) د/ عز الدين فراج، المرجع السابق ٢٩ ـ ٣٧ .

ثالثاً: اهتمام الخلفاء بالعلم والعلماء:

اهتم الخلفاء بعلوم الدين ثم قاموا بترجمة علوم الأمم السابقة إلى العربية، وحظي المتعلمون برضا الخلفاء الذين كانوا يغدقون عليهم الهبات والعطايا، وكان الخلفاء يعلمون خاصتهم وأبناءهم. وحظي المترجمون برضا الخلفاء ومنحوهم الهبات والعطايا، وقد عهد الخلفاء إلى العلماء الأفاضل بتعليم أولادهم. وكان المأمون من أعظم خلفاء بني العباس اهتماماً بالعلم والأدب، فشجع العلماء ووفر المكتبات وأنشأ المدارس الإسلامية، وكان يحضر المناقشات العلمية.

وهكذا نجد أن القرآن والسنة النبوية والخلفاء والأمراء قد اهتموا بالعلم وشجعوا على طلبه، الأمر الذي ساعد على ازدهار الحضارة الإسلامية وظهور علماء أفذاذ في مختلف العلوم مثل ابن سينا في الطب، وابن الهيثم في الطبيعة (الفيزياء)، وجابر بن حيان في الكيمياء. لذلك ازدهرت الحضارة الإسلامية بعلومها المختلفة وصناعاتها المتنوعة والزراعة الناجحة في وقت كانت فيه أوربا تعيش في ظلام دامس، فأسرعت أوربا لتأخذ من الحضارة الإسلامية[1].

(١) نفس المرجع، ص ٣٧ - ٣٩.

الحضارة

الحضارة هي مدى ما وصلت إليه أمة من الأمم في نواحي نشاطها الفكري والعقلي من عمران وعلوم، ومعارف وفنون وما إلى ذلك، والترقي بها في مدارج الحياة حتى تصل إلى الهدف الذي تنشده بما يتواءم ويتفق مع أحوالها وإمكانياتها المختلفة(١).

وهناك تعريف آخر للحضارة كما يذكره ول ديورانت بأنها: «نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي»(٢).

نشأة الحضارة وتطورها:

إن اجتماع بني الإنسان أمر ضروري، فالإنسان اجتماعي بطبعه، فليس في استطاعة إنسان وحده أن يهيئ لنفسه وسائل رزقه ومعاشه إلا بمعاونة أخيه الإنسان، كما لا يمكنه أن يدافع عن نفسه إلا بالاستعانة بأبناء جنسه، وهذا ما عبر عنه الحكماء قديمًا بقولهم: «الإنسان مدني واجتماعي بالطبع». فإذا كان الاجتماع وكان التعاون فإن الإنسان يتمكن من التغلب على صعوبات الحياة والحصول على الرزق من جهة، والدفاع عن النفس من جهة أخرى(٣).

---

(١) د. أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية، ط٩، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٧.

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ١، ص٣.

(٣) عبدالرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق الدكتور علي عبدالواحد وافي، فصل العمران البشري.

ومع أن اجتماع النوع الإنساني ضروري من أجل تحقيق حاجاتهم ومعاشهم بالقدر الذي يحفظ الحياة، ويعمل سكان الحضر – المدن والقرى– في الزراعة والصناعة والتجارة والفنون، في حين يعمل سكان البادية الذين يقومون بتربية الحيوانات كالغنم والبقر والإبل في الرعي ويبحثون عن المراعي لحيواناتهم التي يعيشون من إنتاجها[١].

وفي المدن والقرى تزيد أحوال الرفاه والغنى والراحة، فيدفعهم ذلك إلى اتخاذ القصور في المساكن وتريينها، وكذلك يلبسون فاخر الثياب ويأكلون من أطايب الطعام؛ لأن المدينة عادة ما يرغب بعض أبنائها الأثرياء في امتلاك الأشياء المادية، ويدفهم ذلك إلى دراسة العلوم والآداب والفنون، ويبزون فيها وينتجون، وبذلك يدفعون عجلة الحضارة إلى الأمام[٢].

وهكذا نجد أن أهل البادية يكتفون بما هو ضروري فقط، بينما نجد أن أهل الحضر لا يكتفون بالضروري، ويسيرون في طريق الرقي والتقدم والعمران لتحقيق وسائل عناصر الحضارة وعوامل تكوينها.

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ١، ص٥.

(٢) د. غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٧٨.

عناصر الحضارة وعوامل تكوينها

إن للحضارة عناصر تتألف منها، وتوجد بوجودها، ولها عوامل تكونها وتستحث خطاها، وعناصرها هي: الموارد الاقتصادية، النظم السياسية، التقاليد الخلقية، متابعة العلوم والفنون.

ولا ريب أن الحضارة الإسلامية قد استوعبت هذه العناصر وعنيت بها، وبرزت فيها وتفوقت.

وأما عوامل تكوينها فكثيرة ومن أهمها:

١- العوامل الدينية.
٢- العوامل الثقافية.
٣- العوامل الأخلاقية والنفسية.
٤- العوامل الاقتصادية.
٥- العوامل الجغرافية والجيولوجية.
٦- التربية[١].

١- العوامل الدينية: لابد أن يتفق الناس فيما بينهم وفي مجتمعهم في العقائد الرئيسة، فالإيمان بالعقيدة الدينية يعلي من أخلاق الناس ويزيد من القيم الروحية التي تعمل على التقريب بين بني الإنسان، وضرورة الإخلاص للعمل ذاته.

٢- العوامل الثقافية: فلها شأن كبير في نشأة الحضارة، فالوحدة اللغوية مثلاً لابد منها لتكون وسيلة بين الناس لتبادل الأفكار والمعلومات، الأمر الذي يجعل الحضارة تسير بخطى واسعة نحو الكمال.

---

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ١، ص٣ وما بعدها.

٣- العوامل الأخلاقية والنفسية: لا ريب أن القيم الأخلاقية التي تسود المجتمعات وتربط بين أفرادها تعمل على توثيق عرى المودة والمحبة بين أبناء المجتمع الواحد وهذه القيم توجد عن طريق الأسرة أو المدرسة أو المسجد أو غير ذلك، ويجب أن تتوافر العوامل النفسية الدقيقة لتنشأ الحضارة، فمثلاً لابد أن يشعر الناس بأنه يسودهم نظام سياسي، كما لابد لهم من أن يشعروا بأنهم مطمئنون على أرواحهم، ولا يتوقعون الموت والهلاك عند كل منعطف في طريق حياتهم، وإلا فإن هذا المجتمع لا يستطيع أن يأخذ بأسباب الحضارة وهو قلق ومضطرب وخائف[١].

٤- العوامل الاقتصادية: للعوامل الاقتصادية أهمية كبرى في تكوين الحضارة، فقد تكون قبيلة من قبائل البدو العرب على درجة نادرة من الذكاء والفطنة، وقد تبدي من ألوان الخلق أسماها كالشجاعة والكرم وإباء الضيم والشمم، لكن ذكاءها من غير تأمين العوامل الاقتصادية التي تؤمن لها مواردها وحاجتها من الطعام والماء سيدفعها إلى شن الغارات والصيد بحيث يقضي على مظاهر المدنية وتراثها.

٥- العوامل الجغرافية والجيولوجية: إن الأمطار والمياه من أهم العوامل للحضارة، فالماء أساس الحياة، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾ ويمكن القول إن الماء أهم للحياة من أي شيء آخر.

---

(١) نفس المرجع.

والأقليم الذي تجود تربته بالطعام والمعادن، وأنهاره تؤمن له الحصول على المياه العذبة، وكذلك تحقق له الطرق للاتصال بغيره، وشواطئه مليئة بالمواضع التي تصلح مرافئ طبيعية لسفنه التجارية، ويقع على طريق رئيس للتجارة العالمية، مثل هذا الإقليم تزدهر فيه الحياة.

أما الأقاليم الحارة فيسود فيها الخمول والكسل والأمراض، مما يعيق التقدم في الحضارة والمدنية.

والعوامل الجيولوجية لها أثر كبير يعتمد عليه في الحضارة، فقد تزدهر المدنية في إقليم، ولكن هذا الإقليم عندما يصاب بكارثة طبيعية كالزلازل والبراكين يقضي على كل ما فيه.

٦- **التربية**: ولابد من تربية الأجيال وتنشئتهم تنشئة سليمة، بحيث نورث للناشئة تراث القبيلة وروحها وتراث الأسلاف؛ لأن هذا التراث هو الأداة الأساسية التي تحول هؤلاء النشء إلى جيل متقدم، فالأجيال المتعاقبة ترتبط بعضها ببعض بفضل قيام الأسرة بتربية أبنائها، وبفضل الكتابة والتجارة وغيرها من الوسائل التي تعمل على زيادة روابط المجتمعات وتصون للثقافات كل ما له قيمة من عناصر حضارتنا[١].

(١) أبو زيد شلبي، مرجع سبق ذكره، ص١٢-١٤.